المحاضرة ٣

الرأي العام في المجتمعات الحديثة والمعاصرة :

أصبح للرأي العام قوة كبيرة في مجتمعنا الدولي الحديث، وذلك نتيجة للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وللتقدم العلمي والتكنولوجيا وخاصة تكنولوجيا الاتصال. ولم يعد في استطاعة أي حكومة من الحكومات اليوم الاستمرار في الحكم دون الحصول على الحد الأدنى من موافقة الجماهير. وقد ضاعف من تأثير هذه القوة التجمعات الجماهيرية الكبيرة في البلدان التي شهدها العالم منذ قيام الثورة الصناعية، وانتشار النظم الديمقراطية، والتوسع في حق الانتخاب، وتحرير المرأة والعبيد، وانتشار التعليم، وتطور الطباعة، وظهور التلغراف والتليفون، واختراع آلة التصوير. وقد دعم ذلك التقدم العظيم في وسائل المواصلات والاتصال ظهور أجهزة الاعلام الجماهيرية الحديثة وتطورها السريع من صحف وإذاعة وسينما وتليفزيون إلى فضائيات وإنترنت، مما ساعد مساعدة فعالة على سرعة انتشار الأفكار والآراء وتبلورها على المستويين المحلى والعالمي المعاصر، خاصة مع انحسار الاستعمار. إلى حد كبير بعد الحرب العالمية الثانية وتحرر معظم شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

ويعد ميكافيلي من اوائل الذين طالبوا بضرورة الاهتمام باتجاهات الرأي العام استناداً الى انه (صوت الله، وكذلك مونتسكيو اذ اورده في كتاباته معبراً عنه بمصطلح الروح العامة فضلاً عن وجان جاك روسو استخدم مصطلح الارادة العامة وجميعها كانت مرادفة لمعنى الرأي العام.

كانت المتطلبات الأساسية لظهور الرأي العام هي زيادة المستوى الثقافي الذي حفزه الإصلاح، مما شجع الأفراد على قراءة الكتاب المقدس باللهجة العامية، وزيادة الاعداد في الصحافات المطبوعة سريعة التوسّع. خلال القرن الثامن عشر، فاستُبدل بالأدب الديني بالأدبُ الدنيوي، في الروايات والنشرات. وكانت مجتمعات القراءة والنوادي تنمو بالتزامن مع ذلك. افتُتحت في مطلع القرن أول مكتبة إعارة وصارت المكتبة العامة رائجة على نطاق واسع ومتاحة للعموم.

كانت المنتديات مؤسسات ذات أهمية محورية في تطوير الرأي العام، والتي صارت دارجة في جميع أصقاع أوروبا في أواسط القرن السابع عشر. رغم محاولة الملك تشارلز الثاني قمع هذه منتديات لندن باعتبارها «أماكن حيث يلتقي المحرورون وينشرون تقارير فاضحة فيما يتعلق بسلوك جلالته ووزرائه»، فقد توافد الناس إليها. لعدة عقود تلَت الإصلاح، وتجمّع الحاذقون حول جون دريدن في منتدى ويلز في راسل ستريت، كوفينت غاردن.

وكانت هذه المنتديات ممهّدات اجتماعية ممتازة، متاحة أمام الجميع وغير عابئة بالمكانة الاجتماعي. على نحو أعمّ، وصارت ملتقيات حيث يمكن تنفيذ الأعمال التجارية، وتبادل الأنباء وقراءة (نشرات الحكومة).

وترجع أصول لويدز لندن إلى منتدى كان يديره إدوارد لويد، حيث التقى وكلاء تأمينات السفن للعمل. بحلول عام ١٧٣٩، كان ثمة ٥٥١ منتدى في لندن. اجتذب كل منها زبانة معينة مقسّمة بحسب المهنة والموقف، كالمحافظين واليمينيين، والحاذقين والسماسرة، والتجار والمحامين، وباعة الكتب والمؤلفين، ورجال الموضة أو «مواطني» مركز المدينة القديم.

أراد جوزيف أديسون أن يقال عنه إنه «أخرج الفلسفة من الخزائن والمكاتب لتسكن في النوادي والمجالس، على طاولات الشاي وفي المقاهي». وفقًا لزائر فرنسي، هو أنطوان فرانسوا بريفو، كانت المقاهي «حيث تتمتّع بحق قراءة كل الأوراق الموالية والمعارضة للحكومة، مقاعدَ الحريّة الإنجليزية.«

انتشرت نوادي النبلاء في القرن الثامن عشر، ولا سيما في ويست إند في لندن. تولّت النوادي الدور الذي كانت المقاهي مضطلعة به إلى حد ما وبلغت أوج تأثيرها في أواخر القرن التاسع عشر. تضمنت الأسماء البارزة وايتس، وبروكس، وآرثرس، وبودلز والتي ما تزال موجودة اليوم.

ان التغييرات الاجتماعية التي حصلت في اوربا في القرن التاسع عشر وحولت المجتمع الاوربي من مجتمع منغلق وامي الى مجتمعٍ منفتحٍ ومُسيّس، فأصبح الرأي العام ذا أهمية خصوصاً عندما شاع استخدام وسائل الإعلام على نطاق واسع من أي وقتٍ مضى وازدادت ثقافة الجمهور. وتزايد إدراك الحكومات لأهميّة إدارة الرأي العام وتوجيهه. خير دليل على ذلك عندما رشح جورج كانينغ على التنافس على المقعد البرلماني في ليفربول وهي من المدن التي معظم سكناها من الطبقة الوسطة والتي ساهمت في تنامي الرأي العام. وفاز

بالمقعد البرلماني حينما أعاد ترتيب حياته السياسية من أصولها الأرستقراطية إلى واحدة ذات قبول شعبي وقتما تنافس على المقعد البرلماني في ليفربول وفاز به،

كان جيريمي بنثام مدافعًا متحمّسًا عن أهمية الرأي العام في تشكيل الحكم الدستوري. اعتقد أنه من المهم أن تكون كل قرارات الحكومة وتصرفاتها خاضعة لرقابة الرأي العام، ذلك أنه «الضابط الوحيدُ على الممارسة الخبيثة لسلطة الحكومة». وكان يعتقد أن الرأي العام يمتلك القدرة على ضمان أن يحكم الحكام من أجل سعادة اكبر عدد من الناس. أي أدخل الفلسفة النفعية بغية تعريف نظريات الرأي العام.

وشاع استخدام تعبير الرأي العام بمدلوله الحديث في خضم الثورة الفرنسية، التي تعد– كسائر الثورات الكبرى– لونا من الوان التعبير عن الرأي العام، ويعد وزير مالية فرنسا في ذلك الوقت (جاك نيكر) اول من اشار الى مصطلح الرأي العام كقوة سياسية في نهاية القرن الثامن عشر، وكان ذلك للتعبير عن التحكم في سلوك المستثمرين في بورصة باريس عندما اكد ضرورة طرح اكتتاب الاسهم بأسم الافراد والاستعانة بالرأي العام بدلاً من المستثمرين.

ثم تزايد الاهتمام بالرأي العام في عشرينيات القرن الماضي، ولكنه كظاهرة عاصر المجتمعات الإنسانية منذ نشأتها، حيث إن الحضارات القديمة لم تكن خالية من مفاهيم قريبة من مفهوم الرأي العام.